دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	أصول الفكر السياسي في القرآن المكي
المصدر:	المسلم المعاصر
الناشر:	جمعية المسلم المعاصر
المؤلف الرئيسي:	حامد، التيجاني عبدالقادر
مؤلفين آخرين:	الشريف، سمير بن أحمد(مؤلف)
المجلد/العدد:	مج 21, ع 82
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1997
الشهر:	يناير / رمضان
الصفحات:	173 - 189
رقم MD:	180040
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	السلطة السياسية، الفكر السياسي الإسلامي، النظم السياسية، الإسلام و السياسة، آيات الأحكام، السياسة في القرآن، العقل، عرض و تحليل الكتب، القرآن الكريم، السور المكية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/180040

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

أصول الفكر السياسى فى القرآن المكي

تأليف: د. التيجانى عبد القادر حامد(*)

مناقشة وتقديم: سمير أحمد الشريف(**)

جهد الدكتور التيجانى عبد القادر خطوة جادة وهادئة وعميقة ومستنيرة عبر رحلة فى الفكر الإسلامى الذى يحتاج إلى جهود خيِّرة أخرى لتصحيح صورة الإسلام التى شوهتها الأقلام القاصرة والنظرات المحدودة، إنه شمعة تضيء ظلمات تراكمت على العقل المسلم، كيف لا وقد اعتمد المؤلف على منهج خاص به، لم يقلد أحدًا قبله فجاء شاملاً فى استنتاجاته متداخلاً فى رؤاه. قسم المؤلف كتابه على أربعة أبواب: الأول وتطرق فيه لبعض المقدمات التعريفية الخاصة بالفكر السياسى وأصوله وعن القرآن، مفندًا آراء غلاة المستشرقين الذين رأوا فى القرآن المكى (رؤية تطورية) مما جاء ضمن ثلاثة محاور: الفكر السياسى / أصول الفكر السياسى/ القرآن المكى.

فى تعريفه للفكر السياسى، يتوقف المؤلف مع مجموعة تعريفات يخلص منها برأى خاص به فيقول "إن الفكر السياسى يختص بالبحث فى مجال السلطة، كيف يتم التوصل إليها والتصرف فيها وعلاقة الفرد ومجاله القانونى الدستورى (ص ١٧)، ويحصر أصول الفكر السياسى بمبدأ السلطة

(*) د. التيجانى عبد القادر حامد: أصول الفكر السياسى فى القرآن المكى، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ط١، ١٩٩٥، ٢٩١ صفحة، مكتب عمان.

(**) سمير أحمد الشريف، الأردن، عين الباشا ١٩٣٧٤ ص. ب: ٣١٩.

السياسية ولمن يجب أن تكون ودليل وجوبها ومبدأ الطاعة الواجبة على الفرد وأصولها- والحدود بين حق الفرد وحق الجماعة وما بينهما من تعارض وكيفية إزالته والغايات الاجتماعية الكبرى التى تقوم عليها المؤسسات السياسية فى تبرير وجودها وتمرير سلطاتها (ص ١٩).

بعد أن بين المقصود بالفكر السياسى وأصوله عرج المؤلف على آيات القرآن المكى بعيدًا عن الخوض فى ماهية المكى والمدنى مكتفيًا بالمشهور بين العلماء، مشيرًا إلى تداخل القرآن المكى والمدنى وتكاملهما فى عرض المعانى والاحتجاج لها، وأن شقى القرآن يشكل، نسيجاً واحداً يشار له كعامل بارز من عوامل الإعجاز القرآنى، أما لماذا اختار المؤلف القرآن المكى موضعًا لبحثه عن أصول الفكر السياسى فنجمله فى الأسباب التالية:

أ- أن السور المكية يغلب عليها طابع التعرض للأصول والأسس والقواعد الجوهرية دون أن تكون السور المكية مجرد فذلكات نظرية مجردة كتهيئة للسور المدنية.

ب- اكتفى المؤلف بالسور المكية؛ لأن بحثه مرتبط بالأصول والقواعد والمقدمات التى تساعد فقط فى تحديد الاتجاه ورسم الغاية التى يهتدى بها السياسيون قبل إقامة المؤسسات وضبط العلاقات، وهذه تجتمع مع القرآن المكى بحكم التقدم التاريخى والترتيب المنطقى والاقتضاء الظرفى.

جـ- فى اختيار المؤلف لآيات القرآن المكى رد على مزاعم المستشرقين الذين ادعوا أن القرآن المكى يحتوى على تفصيل لليوم الآخر وأسس الفكر السياسى وذهبوا يبحثون فيه أيضاً عن فكر سياسى دنيوى حسب (جولدتسيهر)، و(فرانش بهل) و(مونتجمرى وات) وأمثالهم، معتبرين أن الظاهرة الدينية ظاهرة نفسية منعكسة على الواقع الاجتماعى، وأما الواقع الاجتماعى التاريخى لقريش هو الذى أفرز الفكر السياسى الإسلامى وأن إنذار القرآن المكى بيوم الحساب نظرة تشاؤمية، والمؤلف فى تصديه للمستشرقين ينطلق من مجموعة رؤى: أولها ما جاء تحت عنوان "المفهوم الكلى للوجود" مبيناً أن الظاهرة الاجتماعية جزء متصل بواقع الحياة، ولهذا فلابد لتفسيرها من الرجوع إلى قاعدة أصولية كبرى تشرح الحياة لتكون على أساسها مفهوم كلى للعالم والحياة والكيفية التى ستكون عليها العلاقات بين الناس، منوهاً لأكبر مدرستين تقدمان حلولاً لهذه الإشكالية، الأفلاطونية المثالية

والإسلامية التوحيدية، الأولى: ممثلة بالمدرسة الوصفية والتاريخية بقيادة (ديفيد هيوم وماركس) اللذين تبادلا الهجوم على القانون الطبيعى حتى صبغا المناخ الثقافى الأوروبى فى القرن التاسع عشر بالصبغة الموضوعية التاريخية الحيادية بعد أن حاولت المدرسة الأفلاطونية المثالية أن تعطى مفهومًا كليًّا للحياة وللعالم وللغايات الإنسانية الاجتماعية، وقد تتبع المؤلف خطوات هذه المدرسة التى انقلبت من مثالية إلى مادية واقعية، انتهت بمعاداة القانون الطبيعى باعتباره آخر أثر من آثار المثالية المتلبسة بالأخلاق والدين، هذا فى حين أن المدرسة التوحيدية الإسلامية وعلى عكس المثالية والأفلاطونية، تذهب إلى القول بأن المادة التى يتشكل منها العالم هى حقيقة موجودة بصورة مستقلة عن الفكر دون التسليم بأن هذه المادة هى سبب عام لجميع ظواهر الوجود، بل تتخطى المادة والفكر معاً للوصول إلى سبب أبدى آخر لا نهائى وتجعله مبدءاً أساسيا أزليًّا ضروريًّا للوجود هو الله، ومعرفته باسمه وصفاته وأفعاله لا يتأتى إلا بوساطة نبى مرسل وكتاب منزل- هذا الاعتقاد يكون المصدر الذى يمد معتنقيه بمفهوم كلى للعالم والحياة وتنظيم لعلاقات الإنسان مع غيره (ص ٣٤) مع التأكيد على أن مهمة السيادة والحكم العليا هى لله وحده، وأن تشريع القوانين ليس فناً يختص به فرد أو فئة دون غيرها، فلا يوجد إنسان فيلسوف كامل العقل مختص فى غايات الاجتماع الإنسانى، بل إنسان رسول يتوسط بين الحق والخلق فى تبيان الرسالة وإيصال الشريعة التى لن تكون قانوناً طبيعياً يلتمس بالحدس والتجريب، بل أمر مباشر يلقى على العقل والإرادة الإنسانية إلقاءً فيذعنا له أو يتمردا عليه.

إن دين التوحيد هو دين العقل دون أن يعطى العقل البشرى صلاحيات الإله- من هنا وحتى يتم التمكن الحضارى بأكمل صورة، لا ينظر للجاهلية كشر؛ لأن فيها بعض الخير مما يمكننا التأسيس عليه، كذلك لا يمكننا إلغاء التاريخ البشرى والابتداء من الصفر، بل لتأصيل تاريخنا الإسلامى ولهذا أخطأ سيد قطب عندما نظر إلى الصحابة كجيل قرآنى فريد لم يتكرر فى التاريخ، ومبالغته رحمه الله فى ذلك حيث اعتبر أن تاريخ ما قبل الصحابة مجرد عمق جاهلى وشر محض يجب طمره، الأمر الذى أوصل سيداً إلى منهجية اجتماعية وفلسفة سياسية فى

التغيير يشابه مناهج الاستئصال الراديكالى والثورات الانقلابية حسب ما يظهر بجلاء فى (معالم فى الطريق).

ولما كان القرآن لا يعرض الأفكار والمبادئ كأنساق شكلية مجردة، لجأ المؤلف فى باب كتابه الثانى لاختيار سورة من أطول السور التى نزلت بمكة، وفيها معظم الأصول السياسية، وهى مما اعتمده كإطار مرجعى.

خلال استعراضه للسورة تجول فى القرآن المكى ملتقطاً الأصول الموزعة فى السور المختلفة ليضمها، إلى ما هو موجود فى السورة المرجعية من أجل تكامل الفكرة، بعد ذلك يختار المؤلف جملة من السور المكية مما نزل متتالياً بمكة ويتعرض لموضوع الأصول السياسية للدولة الإسلامية، ويكمل بها ما يحتاج إلى إكمال، فاختار سورة الأعراف كقسم أول جعله إطاراً تصورياً يمثل حقيقة الوضع الإنسانى، وما يجب أن يكون عليه من علاقات بالله والإنسان والكون ضمن زاويتين: إن الناس مخلوقون من نفس واحدة على فطرة سليمة، وأن الله قد مكن لهم فى الأرض وجعلها مصدراً لمعاشهم، وإن الناس مأمورون، ولهذا سيبعث من بينهم رسلاً يقصون عليهم أمره، وهذا يقتضى منهم (الناس) الخروج على كل ولاء واتباع الرسل ليتم توحيد الولاء لمن له الأمر والخلق.

القسم الثانى من سورة الأعراف يعرض المؤلف فيه لنماذج من تجارب الرسل عبر التاريخ كتطبيق عملى للقسم الأول، حيث عرضت هذه السورة من بعد تجربة آدم تجربة (نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى)، بينما القسم الثالث من السورة عاد فيه المؤلف إلى أهل مكة ليقدم لهم المعانى التى ذكرها القسم الأول، ومن خلال تجارب الرسل الذين ذكروا فى القسم الثانى؛ حتى تختتم السورة بخطاب الرسول ﷺ فى خاصة نفسه مما يفرد المؤلف له موضعاً من خلال علاقته عليه السلام مع قريش فى سور مكية أخرى.

فى معانى القسم الأول يورد المؤلف ما ذهب إليه مؤيدًا ذلك بنصوص من القرآن الآيات ١٨٩/١٩٠/١١/ ١٧٢/٢٥ ومستفيدًا من المصادر اللغوية كلسان العرب، فى حين يثبت معانى القسم الثانى، والنصوص الدالة عليها مع ذكر ملاحظات، خاصة بالآيات ٢/٣٥/٥٤ من الأعراف: **أولها:** أن الآيات تشير إلى أن الرسل (منكم). **ثانيها:** أن الآيات تشير إلى أنواع من التطبيق الإنسانى لآيات الله، ثالثها: أن

مهمة الرسل موقوتة بزمان ولابد أنهم ميتون حسب طبيعتهم البشرية وتظل رسالاتهم باقية. أما كيف تصبح تلك المعانى أصولاً للفكر الإسلامى فالآيات تقرر كإطار تصورى عام أن:

١- الناس مخلوقون، وذلك يحتاج إلى الاعتراف بسلطان أعلى قادر وحده على الخلق؛ لأن من قدر على الخلق قدر على الأمر.

٢- وأن الناس مخلوقون من نفس واحدة، هى نفس آدم الترابى، من هنا لا يستطيع أحد من أبناء آدم الادعاء بالامتياز على أحد من حيث الأصل التكوينى أو الانتساب للقدرة الخالقة؛ لأن وحدة الأصل يشترك فيها الناس، الرسل والأنبياء، وهذا يعنى عدم إخراج الرسول عن إطار البشرية، حتى مع إتيانه سلطان النبوة، وإنما يعنى أنه أصبح بشراً رسولاً إلى بشر، فإذا ما اعتقد الناس بما سلف فذلك أصل التوحيد وعقيدة الإسلام أساس البناء الاجتماعى كله.

٣- وأن الناس خلقوا على الفطرة السليمة وهذا يعنى أن النفس الإنسانية من حيث الخلق ملائمة لطبيعة الأمر الإلهى.

٤- وأن الله قد مكن للناس فى الأرض، وجعل معاشهم فيها، ومن استحوذ عليها واحتكرها صارت له السيادة على الآخرين والاستكبار على الله، والإفساد فى المجتمع الإنسانى؛ وذلك لأن الأرض مصدر أساسى للثروة، وأن قوله تعالى: ﴿**مكناكم فى الأرض**﴾ موجه لجميع الناس بصفتهم الإنسانية لا الاعتقادية، فالأرض ليست للمؤمنين وحدهم وليست للكافرين وحدهم، وإنما لله جعلها موضع اشتراك بين عباده؛ ليبلوهم، وأن حق الحياة فى الأرض والانتفاع بها مكفول للناس على اختلاف عقائدهم.

٥- وأن الناس واقعون تحت دائرة التكليف الإلهى، إذ رغم أن الناس مفطورون على الإسلام إلا أن الله لم يدعهم للفطرة وحدها فقد تفسد الفطرة أو تتبدل.

٦- تقرر الآيات أن الناس هم خلفاء الرسل فى إقامة التوحيد السياسى ومن هنا قد يندثر الحق المنزل للناس مالم يؤخذ بواحدة من هذه الحالات:

(أن يأتى رسول يجدد ما اندثر من الدين) (أن يتكفل الله بحفظ واحد من كتبه) (أن يعصم الله أمة من الأمم من الضلال الجمعى)، وبديهى أن الرسول خاتم الأنبياء، فلم يبق إلا حفظ الكتاب وعصمة الأمة، القسم الثانى من سورة الأعراف، وفيه ذكر المؤلف تجارب

الرسل السابقين مما استغرق وضع الإطار التصورى ليعرض بعده بتفصيل للتطبيق التاريخى ممثلاً بنماذج من الأمم، وقد رتب الآيات التى عرضت تجربة الرسل فى قائمة، ونظر فى التطورات التاريخية التى مرت بها الدولة، فثبت الآيات التى تحكى تجربة (نوح وعاد ولوط وشعيب)، دون أن يذكر أرقام الآيات ثم أثبت الآيات فى القائمة الثانية، ومنها جمع أقوال الأمم الأخرى لتوضيح كيف تم التفاعل مع مبادئ الدين والاستجابة له، فذكر نصوص الآيات التى رد بها أقوام (نوح وهود وصالح ولوط وشعيب) ليخرج بملاحظات:

١- أن أول الرسل نوح لم يبدأ دعوته لقومه بتعريف الدين والعبادة والإله، بل دعاهم أولاً إلى توحيد الله.

٢- أن كل رسول أتى من بعد نوح كرر دعوة التوحيد.

٣- أن صور الفساد فى الأرض تتعدد من قوم إلى قوم ومن مكان إلى مكان.

٤- أن نوحاً وهوداً وصالحاً هم الرسل الثلاثة الوحيدون الذين لم يذكر أن قومهم أزمعوا إخراجهم من الأرض ونفيهم على عكس الحال مع شعيب ولوط وموسى؛ لأنهم لم يبلغوا أن يكونوا أمة.

٥- أن لفظ (القرية) قد دخل فى فترة متأخرة، إذ لم يكن فى حوار الرسل مع أقوامهم ذكر للقرية مما يعنى وجود تطور قد طرأ على حياة الناس اجتماعيًّا.

٦- أن من آمن مع نوح لم يكن طرفاً أساسياً فى المعركة، أما بعد نوح فإن (الذين آمنوا) صارت تطلق عليهم عبارة (الذين استضعفوا فى الأرض) وهذا مؤشر على تطور حركة الدين وأن المؤمنين صار لهم وجود.

٧- أن القرآن ميز جماعة من الرسل سماهم أولى العزم، وهذا راجع لمجموع التحولات التى حدثت.

٨- تعرض السورة لتجربة موسى مفصلة ومنفردة كنموذج مكبر لصراع السيادة بين الرسول وملئه؛ لنرى أن المسلمين بعد موسى انقسموا إلى فئات حسب بذلها وقدرتها لإقامة الدين.

الأولى: القاصرون ممن لم يبلغوا مرحلة التمكين، وهى الفئة المستضعفة.

الثانية: القاعدون الذين اخذلوا عن إقامة الدين.

الثالثة: المجاهدون الذين سعوا وتمكنوا من إقامة الدين فى الأرض، وهم أمة التمكين والنصر، وقد عرض المؤلف تجربة موسى عليه السلام ضمن مجموعة مشاهد ومقاطع مرتبة زمنياً.

المشهد الأول: صراع موسى وأتباعه من جهة مع فرعون وأتباعه، كون ذلك الصراع كان حول الكبرياء فى الأرض لمن تكون، ووقوف موسى مع الخيار التقليدى: إما الخروج من الأرض حاملاً دينه، أو الخروج من الدين ليبقى فى الأرض، وهو خيار مرفوض؛ لأن أساس الدعوة الربط بين الدين وبين الأرض، والاستيلاء على السيادة فيها باسم الله، من هنا يقف الفريقان على حافة القتال لكن موسى يدرك نتيجة المعركة مسبقاً بسبب عدم تكافؤ الطرفين، ولذلك طرح خيار الخروج من مصر بشرط موافقة فرعون على ترك المجال أمام بنى إسرائيل للذهاب مع موسى، فرفض فرعون خوفًا من أن ذلك لن يعنى إلا أن موسى وأتباعه قد صاروا أمة لا تفصلهم عن السيادة إلا موطئ قدم قد يجدونه بالتحالف، زيادة على خطر الهجرة الجماعية من تأثير سالب على اقتصاد مصر. رفض فرعون الفكرة وشدد الحظر عليهم حتى وصل الأمر بفرعون للجوء للتصفية الجسدية والقهر بالاستئصال فى حين لم يكن لدى موسى غير الصبر والصمود.

من استعراض تجربة الرسل يستخلص المؤلف بعض ملاحظات:

أن التدين يبدأ (بالتنزيل) الذى يوصل للناس، والتدين سعى يؤمر به الناس لمعرفة الوحى ولإقامة العدل فى الأرض.

أن الوضع الإنسانى قبل نزول الوحى ليس طبيعياً ويتخذ قاعدة لاستنباط المعايير السلوكية.

أن الأرض تكون مشتركة بين من يسعى لإقامة العدل فيها ومن يسعى للكبرياء، وأن التمكن فيها سيكون مداولة واستخلافاً ضمن شروط موضوعية.

الرسل أول من جاء بفكرة الدولة وبمفهوم الاحتكام إلى قانون غير ذاتى المصدر.

أن تملك الأرض وما تخرجه والاستعلاء على الناس بغرض السيادة والتمكن نوازع لها وجود فى الفطرة البشرية، وأن النزع للحق والعدل وجود أصيل فى النفس البشرية، وأى صراع يوجد بينهما فهو فى داخل النفس الإنسانية الواحدة.

القسم الثالث من سورة الأعراف: تتبع فيه المؤلف الآيات التى التفتت إلى الرسول ﷺ بمكة وعلاقته بقريش هذا الالتفات لقريش لم يأت آخر السورة، وإنما ظل يأتى على طول السور كلها ضمن إشارات خاطفة تتخلل العرض

التاريخى وتذيل عاقبة الأمم ومصائر الممالك.

المقطع الأول: خاص بالآيات ١-٤ من سورة الأعراف، وفيه يلاحظ المؤلف أن الآيات افتتحت بخطاب عام للناس جميعاً بما فيهم قريش، وبعد أن يستعرض تجارب الأمم الأخرى يصبح الخطاب خاصاً بقريش مباشرة؛ لأن ذلك يمده بوقائع التاريخ وشواهد منه، كذلك فإن الخطاب الموجه إلى قريش موجه إلى الرسول وأتباعه؛ ليولد فيهم إحساساً خاصاً ينمى فيهم وعى التاريخ، فيمارسون النظر الموضوع والتحليل العلمى.

المقطع الثانى: ويستنطق فيه المؤلف الآيات ٢٩/٥٦/٩٤/٩٥/٩٦/١٠٠/ ١٠١-١٠٢، ويلاحظ أن هذه الآيات جاءت فاصلاً بين تجربة مجموعة من الرسالات السابقة وتجربة موسى؛ لأنها خاصة ومن نوع جديد يراد بها منهج دينى تطبيقى، خرج المؤلف منها بمجموعة إشارات:

١- تأكيد أن حركة التدين التى يتعاقب فيها الرسل على الناس لم تكن عملية عبثية تبدأ بالإنذار وتنتهى بالاستئصال وإنما كانت عدلاً مع الهالكين من أهل القرى ورحمة لمن يرثون الأرض من بعدهم.

٢- هذه الآيات أجملت فيها المعانى التى فصلت ضمن الإطار التصورى السابق، فهى تتحدث عن الأمر التكليفى وإقامة العدل وإخلاص الولاء والإصلاح فى الأرض والإفساد الذى ينشأ نتيجة الالتزام أو الإخلال بأمر الله.

المقطع الثالث: وفيه عكف المؤلف على الآيات ١٧٦/١٨١/١٩٤/١٩٦/ ١٩٩، وهى التى جاءت على أعقاب التجربة الموسوية ولها دلالات عميقة إذا علمنا أن فرعون انسلخ عن آيات الله بعدما جاءته، وأن بنى إسرائيل مثلوا السلطة الثقافية التى لجأ إليها كفار قريش لمحاججة الرسول لذلك جاءت هذه الآيات لتطعن فى أساس تلك السلطة المدعاة مشيرة إلى أن المصدر اليهودى الذى تفزع إليه قريش ليس هو الحكم العدل، وأن المصدر اليهودى وإن كان معه كتاب إلا أنه لم يتبعه واتبع هواه، وبعد ذلك ذكرت الآيات مواصفات الأمة التى يجب أن يعمل الجميع على إيجادها لأهميتها فى إصلاح الخلق والأرض مما يخص المضطهدين فى شعاب مكة، الأمر الذى ينقلنا لتتبع التجربة القرشية فى مكة من بين الأجزاء

الكثيرة التى عرض لها القرآن فى أكثر من موضع لمعالجة تجربة الرسول ﷺ مع قريش فى مكة، خاصة وأن هذا المشكل واجه المؤلف عندما اختار ما يدع وما يأخذ من القرآن المكى الذى عالج هذا الجانب، من هنا وجد المؤلف نفسه يعتمد منهجاً من بين عدة اختيارات ركز فيها على البحث عن أصل السيادة السياسية ومشروعيتها وبواعث الفعل السياسى ومكانة الدولة فى النسق الاجتماعى، ثم مكانة الأمة والأغراض التى تلتقى فيها والفلسفة التى تستند عليها- هذه الأغراض التى تطرقت إليها غالبية سور القرآن المكى، وإن بدرجات زوايا مختلفة؛ لذلك اعتمد المؤلف السور التى تتعرض لتلك القضايا بصورة جامعة وجاء نزولها متتابعاً وتشكل نسيجاً واحدًا، وهى ما سيكون محور الدراسة (الزمر/ غافر/ فصلت/ الشورى/ الزخرف/ الدخان/ الجاثية/ الأحقاف).

قسم المؤلف السور إلى آيات تعبر عن معنى مشترك مما يقصده فى بحثه سماها بالمقاطع، مثل آية (١+٢) من الزمر، وآية (١) من سورة غافر، وآية (١) من فصلت، وكذلك الآيات الأولى من الجاثية والأحقاف والزخرف، وهى جميعًا تبدأ بـ (حم تنزيل الكتاب) أو (حم والكتاب)، وهى تبحث وتشترك فى التركيز على مفهوم أن الكتاب منزل وليس موضوعاً، كأنما تتعرض لمبدأ السيادة العليا فى المجتمع فتقدم الفكر التنزيلى مقابل الفكر الوضعى.

ولما كانت (الأمة) هى الطريقة والدين، فإن هذا ما سعت به قريش لرسول الله بما يجىء من دلالات، أهمها: أنهم يعتبرون أنفسهم على دين هو دين الآباء إبراهيم وإسماعيل، بمعنى أنهم لم يكونوا يستنكرون أن يكون (الدين هو أساس الاجتماع والإطار المرجعى الذى يحتكم إليه فى شؤون السيادة العليا فى المجتمع، وأن الحكومة التى يمثلونها تقوم على أساس من قيم الدين ومن هنا فهم أحق بالرسالة الجديدة التى تجدد دين إبراهيم وتكمله، نفهم لهذا سبب استنكار أبى جهل نزول (القرآن على محمد ﷺ بقوله "ما فى مكة أعز منى ولا أكرم" ص ١٠٥، هكذا جاء القرآن واصفًا المشكرين المستكبرين (بالإفك) الكلمة التى تشير كل اشتقاقاتها إلى (الانقلاب) ليبرهن أن حكومة الملأ من قريش حكومة ساقطة عنها الشرعية، ومن هنا فإن آية: ﴿**ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها**﴾، وآية: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا**﴾، وآية: ﴿**وما**

تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ تحتوى جميعاً على لطائف أهمها":

أولاً: أن محمداً ﷺ لم يأت ليبدأ دورة دينية من العدم، وأن شرع الله لم يبدأ به أو بإبراهيم، بل بنوح بمعنى أن الحكومة من ملأ قريش إذا كانت تؤسس شرعيتها على إرث الدين الإبراهيمى فإن هذا الأساس ليس موضع تسليم وأن كل إسهام بشرى جاء على هدى إبراهيم، فإن محمدًا أحق به.

ثانياً: إن آية: ﴿**أمرت لأعدل بينكم**﴾ أمر مباشر لرسول الله أن يتولى القيادة السياسية فى المجتمع، وتعنى أن يتولى الرسول قيادة الناس؛ لأن أصل العدل فى الأرض أن تكون الكبرياء فيها له وحده، أى إنزال الملأ القرشى من موضع السيادة السياسية بعد أن جردوا من الشرعية التاريخية وأن إقامة العدل تعنى الالتزام بإقامة الدولة التى يجب أن تتوفر فيها مجموعة خصائص:

١- أن تكون توحيدية تحريرية:

ولما كان العدل يعنى أن يوحَّد الولاء لله فإن ذلك سيحرر الناس؛ ولذلك فهى دولة تصل للحرية عن طريق التوحيد، وستبطل الاسترقاق والاستكبار، وأنها بإسناد مفهوم السيادة العليا لله ستحرر الناس من الإشراك الوثنى والطغيان البشرى، فالدولة بناء على هذا لا تنشأ كأداة تمتص حريات الآخرين بل لتنمية قدراتهم على التحرر وتعيينهم على إنجاز مشروع التوحيد الذى أبرم فى الميثاق.

٢- أنها دولة للناس:

والكتاب هو الأصل الذى يقوم الرسول بموجبه بالعدل ويكوِّن الدولة، فإذا كان الكتاب للناس أصلاً، فالدولة التى تقوم به ستكون للناس كذلك، ولا يمكن أن تكون دولة لفرد أو حزب أو جماعة.

٣- أنها دولة قانون:

يحتكم فيها الناس حكامًا ومحكومين لشريعة معلومة بقواعد موضوعية ووجود مستقل، هذه الفكرة لم تتبلور إلا حديثًا فى النظرية السياسية والفقه الدستورى، وأن القرآن يقرر ابتداءً أن الرسول والمؤمنين جميعاً يقعون تحت دائرة التكليف والمساءلة، ويحتكمون إلى الشريعة المنزلة، وليس الموضوعة، فالشرائع لا يكون وصفها من اختصاص بشر والشريعة المنزلة تختلف عن القانون الطبيعى.

٤- أنها دولة غير ثيوقراطية:

محصورة بين الكتاب والأمة التى تتولى مهمة الهداية بالحق المنزل وإقامة العدل القائم على الميثاق التوحيدى

الذى ينتهى بتحرير الناس من سلطة الناس، وهذا ينسف سلطان قريش التى لازالت ترتكز على ركن اقتصادى أوصل الملأ القرشى لحالة من الترف انعكست على الوضع السياسى والإنسانى، فآية ﴿**فلا يغررك تقلبهم فى البلاد**﴾ و﴿**أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**﴾ تشير إلى أن الثراء والترف المستند على فلسفة الإشراك ينطوى على الظلم الذى يجمع أسباب الفناء للسلطان السياسى، ونظرة سريعة إلى وضع مشركى مكة يوضح ما ذهبنا إليه، حيث أشارت الروايات إلى أن رجالاً جاهليين يملك الواحد آلاف من المزارع والإبل، استعملوا آنية الفضة، مما ترك أثرًا فى نفوس الفقراء وجعل مهمة الرسول شاقة، وهو يدعو لإقامة دولة العدل بين الناس ويسعى لإبطال قواعد الاستكبار القرشى بتغيير مفهوم الثراء لديهم وجعله حرثاً دنيوياً ورزقاً من إله قادر على استرداده وإتلافه، وأن ربط القرآن بين الثراء والطغيان واضح فى قوله: ﴿**كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾ من هنا فإن رفض القرآن للمبررات الاقتصادية التى يستند عليها الملأ المكى فى تبرير سلطانه السياسى يعنى انقلابا على حكومة الملأ وإعلاناً عن قيام أمة الإسلام التى تسعى لاستكمال سيادتها على أنقاض قريش المتهالكة والتى فقدت مبررات وجودها واستعلائها. فإذا تأملنا آية ﴿**والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون**﴾ الشورى (٣٨- ٤٠). نخرج بملاحظات هى:

١- أنها لا تتحدث عن أفراد إنما عن جماعة، ولذلك استخدمت صيغة الجمع.

٢- أنها تتحدث عن الجماعة والإمارة وتصفها بالشورية.

٣- أنها تتحدث عن الإنفاق الطوعى المتلائم مع إمارة الشورى ومقتضيات الواقع الاقتصادى السياسى.

٤- أنها تعلن بصراحة إسقاط مبدأ الشرعية القرشية وتبيح الخروج عليها باعتبارها سلطة طاغية خرجت على التوحيد الإبراهيمى والهدى المحمدى، ولهذا فإن من يرصد تحركات الرسول ﷺ يجد أنها تتزامن مع النقطة الرابعة؛ لأن حركة الرسول ستكون حركات رجل دولة يسعى لاستكمال عناصر السيادة ويخرج من الطوق الاقتصادى، وإن فكرة الانسحاب السلبى من مكة وتركها للمشركين لم تكن واردة فى

منهج الرسول الذى اعتمد على مبدأ سحب الأرض من تحت أقدام قريش أو تهديد مصالحها فى الطائف أو الحبشة أو تطويقهما بالقبائل العربية، ولعل واقعة ولادة الرسول ﷺ أنه سقط على الأرض بيديه رافعاً رأسه للسماء كما ورد فى طبقات ابن سعد تشكل بعدا رمزيًا تهيئ لمضمون رسالة سيحملها هذا الطفل مستقبلاً، ملخصها أنها رسالة تقبض على الأرض، وهى ناظرة إلى السماء بما تمثله من توحيد بين الواقع والمثال.

يقترب المؤلف فى الباب الثالث من كتابه من واقع العلاقات السياسية القرشية الداخلية والخارجية، يفحص ادعاءات ملأ قريش فى زعمهم أنهم على دين إبراهيم، متابعا مسار الانحراف الذى طرأ على دين إبراهيم، وما يمكن أن ينتهى إليه، وكيف أن الرسول اتخذ هذه الدعوة تحديداً لينفى عنها ما لحق بها من إشراك ويضمها إلى دين إبراهيم؛ ليستأنف عليها نشاطه ومنهجه فى التغيير، فيتوقف المؤلف مع الانهيار الداخلى لقريش ابتداء من انقسام بطون قريش إلى معسكر يبايع بنى عبد مناف ويحالفهم، ومعسكر يبايع بنى عبد الدار ويحالفهم، ومعسكر لم يكن مع أولئك أو هؤلاء، ومن خلال هذه الحالة التى وصلت إليها قريش يمكننا ملاحظة:

١- أن اتجاه السلطة المكية السياسية التى سار عليها قصير ستتغير وتنتهى إلى نوع من الممارسة المرنة المحافظة حتى جعلوا لكل بطن وظيفة؛ حتى يتجنبوا الصراع- يختار لها البطن من رجاله من يقوم بها على أساس العرف القبلى.

٢- أن الاتجاه السياسى بعد ذلك سيظل يتحكم فيه معسكر بنى عبد الدار ومعسكر بنى عبد مناف ولا شأن لأى قبيلة أخرى من قريش إلا بالانضمام لأحد المعسكرين، وأن السياسة المكية ستقوم على التحالفات مع الابقاء على منهج التراضى والمساومة؛ كى لا يصل النزاع حد الاقتتال، وحتى لا تتأثر المصالح الاقتصادية العليا التى يقوم عليها الكيان الاجتماعى.

٣- أن الجزء المهم الذى تهتم به قريش هو الكعبة التى لا يراد منها إلا القيام بدور حصان طروادة- تأتى إليه القبائل لتقضى فيه الصفقات التجارية؛ فيزدهر الاقتصاد باسم السقاية والرفادة وحماية الحجيج، لا فرق بين عابد الوثن وغيره؛ لأن الكعبة صارت المنطقة الوحيدة المفتوحة دينيًا لكل الأوثان والأجناس والأديان؛ لكونها بيت الله،

ولكون الدين قد صار مرفقًا تجاريًّا وظفت شعائره لتقوية المركز التجارى والأدبى لقريش التى قامت بمجموعة ترتيبات لتحقيق السيادة.

يتبين من ذلك أن قيم الدين التوحيدى داخلها قيم تجارية أصبح لها أولوية عظمى فى المجتمع القرشى، ستجعل مهمة الرسول ليست سهلة خلال محاولته إعادة الأمور إلى نصابها، خاصة وأن الرباط العرقى يمكن أن يتلاشى ليحل محله الرباط الاقتصادى مما ينسحب على التكوين الاجتماعى القرشى، حتى لاحظ المؤرخون أن قطع الأرحام صار سمة بارزة فى ذلك المجتمع، ترتفع فوقها المصالح الاقتصادية وتأخذ الأولوية عليها- هذا الرباط الاجتماعى الهش لم يحفظ الوجود السلطانى لقريش ونشب صراع داخل معسكر بنى عبد مناف أنفسهم تمت المساومة بشأنه قبل أن يستفحل، فتنازل عبد شمس لأخيه هاشم عما فى يده من السقاية والرفادة واحتفظ هو باللواء، تمكن هاشم من إبرام معاهدة صداقة وتجارة مع الحبشة ليمهد لقريش رحلة الشتاء والصيف للشام والحبشة ولتبدأ الحركة التجارية النظامية التى اتسعت على أثرها أموال قريش وعظم سلطانها؛ ليكون سببًا فى نزاع جديد على السلطة السياسية بين هاشم وأخيه أمية بن عبد شمس ص ١٣٨، انتهت إلى المنافرة والتحكيم، ونفى نتيجة ذلك أمية إلى الشام لمدة عشر أعوام، وإن ظل العداء مستفحلاً بين البيتين حتى ظهرت النبوة فى بنى هاشم، وكان بنو أمية أشد المعارضين نتيجة الصراع التاريخى، هذا التطاحن الداخلى مقدمه للانهيار والتداعى، وهو إفراز طبيعى للمجتمع الذى يقوم كيانه على التجارة المستنكفة عن الغيب والمستترة بأشكال الدين وطقوسه، ويكفى هذا من سبب لكى تفقد قريش هويتها المستقلة وتسقط تحت هيمنة الأمم الأقوى تماسكًا أو الأمم ذات الجهاز السلطانى الأكثر قدرة وأكبر أثرًا، فهل التآكل الداخلى فى قريش هو الذى قادها للارتماء فى أحضان الفرس أو الروم - القوتان الأعظم على المسرح السياسى آنذاك؟ بالنظر إلى عموم الوضع الجغرافى والاقتصادى للحجاز، نلحظ أنها منطقة اتصال بين الشرق والغرب وتؤثر تأثيراً مباشراً على مصالح الفرس والروم، فإذا عرفنا أن التجارة الحجازية تعتمد اعتماداً كليًّا على الدول الخارجية يمكننا الإجابة على السؤال السابق بنعم.

ولعل ما شهد به تاريخ جمهرة أنساب العرب يؤكد قابلية قريش

للاستعمار عندما خرج عثمان بن الحويرث وكان يطمع أن يملك قريشاً وكان من أظرف قريش وأعقلها؛ حتى يقدم على قيصر، وقد رأى موضع حاجتهم إليه ومتجرهم ببلاده، فذكر له مكة ورغبه فيها، وقال: تكون زيادة فى ملكك كما ملك كسرى صنعاء، فملكه عليهم وكتب له إليهم، فلما قدم عليهم قال: يا قوم إن قيصر من قد علمتم أما أنكم ببلاده وما تصيبون التجارة فى كنفه، وقد ملكنى عليكم، وإنما أنا ابن عمكم وآخذ الجراب والقرظ والعكة من السمن والإهاب فأجمع ذلك ثم أبعثه إليه، وأنا أخاف إن أبيتم أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه ص ١٣٩. هذا الموقف لعثمان بن الحويرث يمكن أن يتخذ تحليلاً موضوعيًّا لموقف قريش ويؤكد على ما يلى:

- أن مصالح قريش كانت تتأثر مباشرة بعلاقاتها مع الروم، ومن هنا فهى فى خوف دائم منها.

- أن الوجود الفارسى فى اليمن كان يحفز الروم ويحرضهم ليكون لهم وجود مضاد فى الحجاز.

- أن المعاهدات التجارية التى أبرمها الروم مع زعماء قريش كان وراءها هدف سياسى استراتيجى يرمى لاصطناع الموالين وإقامة مملكة حجازية رومية عاصمتها مكة.

- أن المصالح التجاريةوحدها هى التى تحدد سياسيات قريش وأن الاعتبار الدينى قد تضاءل.

- أن حالة الحياد السياسى التى تدعيها قريش تسقط أمام الامتحان المباشر، وسوف تضطر للانحياز لأحد المعسكرين (الفرس أو الروم) وسيتوقف رفع شعار (إن قريشا لقاح) أى لا تخضع لأحد.

- أنه بين خواء الوثنية وانقطاع الإبراهيمية ربما صار الدين الذى يدعو إليه محمد هو الخيار الوحيد المفتوح أمام قريش إذا أرادت أن تتماسك داخليًّا وتنهض (أمة وسطاً) مستقلة عن الفرس والروم، ولهذا فهى دعوة تهدف للوصول إلى موضع السيادة العليا فى المجتمع تنزعها من الناس وتعيدها إلى رب الناس الذى أمر بإقامة العدل وبنى باسمه البيت الحرام وجعله قبلة للتوحيد، ومن هنا تأتى مهمة محمد ﷺ ليعيد للدين أشكاله ومحتواه الاعتقادى ويعيد للكعبة مكانتها كبيت يتصل فيه الناس بالله لا سوقًا ينقطعون فيه عن الله؛ ولهذا يجب الوقوف مليًّا أمام سورة قريش التى أكدت معانيها على أن الائتلاف كان بسبب وجود البيت

الحرام رمزًا لدين التوحيد الإبراهيمى وتجسيدًا لقيم الغيب والإيمان بالإله الواحد، وغير ذلك سيفقد البيت مغزاه الدينى، ويضمر محتواه الغيبى، وتضعف قدرته على توفير الائتلاف الاجتماعى والأمن النفسى وذلك هو منشأ الخطر الذى لن تستطيع أن تدفعه رحلة الشتاء والصيف، وهو خطر قريب جدًّا، جاء محمد لينذر عواقبه وليغير اتجاه الأحداث ليتمكن من تفاديه.

كما تؤكد ظلال المعانى للسورة نفسها أن قيام الالتئام الاجتماعى داخل قريش على أساس التجارة قلباً لموازين القيم وانقلابًا على دين التوحيد، وأن قيم التجارة والمنفعة العجلى والعلاقات القائمة محل استنكار خاصة وهى تطرح موضوعة البناء الداخلى لقبيلة قريش على اعتبار أنها ستكون نواة الجهاز السلطانى فى بلاد العرب، وأن قريشًا إذا استمرت تقوم داخليًّا على الأساس القومى المقلوب فلا يؤهلها ذلك التحول إلى أمة ولا أن تحافظ على سيادتها السياسية، وعبر التاريخ كثيرة فى هذا الشأن، كما أن اعتماد قريش مع هذا الإيلاف الداخلى الهش وعلى الإيلاف الدولى الخارجى أمر شاذ يؤدى إلى فقدان الترابط الداخلى والاستقلال السياسى والاقتصادى فى خضم الصراع الدولى الذى لم تتأهل قريش لخوضه بعد، وأنه بدلاً من الاتجار باسم البيت الحرام فإنه من الخير لقريش أن تعبد رب البيت الحرام وتقيم بناءها الاجتماعى على نسق القيم المرتبطة بعقيدة الجزاء الأخروى، وليس على قيم التجارة وحدها؛ لأن إقامة الإيلاف الاجتماعى على عقيدة الجزاء الأخروى هو الذى يمكن لقريش من أن تتحول إلى أمة مستقلة سياسيًّا واقتصاديًّا.

إذا ما انتقلنا إلى الفساد الإسرائيلى فإننا سنتوقف مع سورة الإسراء لنعرض للصراع السياسى ضمن إطاره الدولى وفى شكله الإسرائيلى، وسورة الإسراء هنا تتناول ظاهرة الاستبداد السياسى الإسرائيلى بدرجة تمكننا من رؤية الكيان اليهودى يتهاوى بين مخالب القوى الدولية الكبرى، ذاتها الفرس والروم، والفارق بين سورة قريش وسورة الإسراء أن الأولى تناقش ظاهرة الفساد الاجتماعى الذى يحدث فى حالة غياب الكتاب والدولة بينما سورة الإسراء تعرض ظاهرة الفساد الذى يكون بوجود الكتاب والدولة، وبهذا تبدأ الإسراء من حيث انتهت سورة قريش.

وبنظرة مجملة على مجموع الفساد، سواء فى قريش أو بنى إسرائيل أو فارس أو الروم، نصل إلى مجموعة حقائق:

١- أن الأمم أصابها إفلاس روحى وتآكل اجتماعى داخلى جعلها تعرض عن دين التوحيد وشريعة العدل.

٢- هذا الانحراف نشأ عنه ظاهرة اجتماعية عرفت بالفساد الذى هو سبب هلاكها.

٣- أن قيام دولة الإسلام ضرورة لإنقاذ قريش والعالم.

٤- أن مهمة الرسول المباشرة بعد الإسراء هى الإسراع فى إقامة الدولة، وهكذا قام الرسول بتنفيذ استراتيجية عبر خطوات هى:

أ- إسقاط الشرعية الدستورية عن حكومة الملأ فى قريش، ودحض مقولاتها الدينية والدعوة لتنظيم الحياة على نمط دينى يسترشد بالقرآن.

ب- تهديد وضرب مصالح قريش الاقتصادية.

جـ- تطويق قريش من الخارج بالأحلاف وعقود الجوار ومعاهدات النصرة والتصديق وما رحلة الطائف إلا خطوة للقبض على الأرض من أجل التمكين والسيادة؛ لأنها تمثل عمقاً استراتيجية لملأ قريش، ولم تكن انسحابًا من مكة أو تخليًا عن السيادة السياسية لملأ قريش فى مكة، ذهابه عليه السلام إلى الطائف كان خطوة مدروسة لو نجحت؛ لأنه ذهب إلى بنى عمر وبن عمير رأس الأحلاف. كذلك الاستجارة بقبيلة نوفل لتفجير مكة من الداخل وكذلك المفاوضات مع بنى عمار.

كل ذلك لم يكن تحركاً عشوائيًا وإنما كان تحركًا حسب خريطة سياسية واضحة المعالم محدودة الأهداف، وبصحبة أبى بكر المتخصص بالأنساب وتاريخ القبائل، ليوقع معاهدة اعتبرت ثورة فى المفاهيم والقيم فكأن الرسول ﷺ قد قبض الأرض وهو ينظر إلى السماء.

بهذا الجهد وهذه البصيرة خالف المؤلف السائد من الدراسات الفكرية التى عتمدت على نصوص القرآن لتعضد رؤية توصل إليها الباحثون ليؤكدوا عمق نظراتهم وصدق تحليلهم وذلك بدراسة الظاهر القرآنية والتبصر فيها والتعمق فى جزئياتها من خلال تتبع خيوط نظرة تكاملية معتبرًا أن الآية القرآنية ظاهرة تحتاج إلى تحليل لاكتشاف مفاتيحها التى تساعدها فى تحليل الظاهرة الاجتماعية وفهمها، هذا ونورد بعض الملاحظات التى لا تقلل من ضخامة الجهد الذى بذله الباحث.

- وضع الهوامش بالشكل التى عليه فى كل فصل متعب للقارئ ولو وضعت الهوامش فى نهاية كل صفحة لسهل متابعتها وتدوين الملاحظات بخصوصها.

- لم يلتزم الباحث بالترقيم كما فى ص ٢٥ حيث وضع ١: ٢ (المفهوم الكلى للوجود) ولم يضع ١: ١.

- لم يتوقف الباحث مع تصادم النقل مع العقل، ويبحث فيها، وتحديداً عند تناوله لحديث غضب الرسول ﷺ عند رؤيته عمر بن الخطاب يقرأ فى التوارة، بل ذهب إلى رفضه ذلك.

- استطراد (ص ١١٥) وإقحام عندما تتبع الباحث فرعيات تطور النظرية السياسية والفقه الدستورى، وكذلك استطراده (ص ١١٦) فى تتبع نشوء الحكومة الثيوقراطية.

- لبعد الباب الرابع من الكتاب المباشر عن مضمون عنوان البحث لم نتوقف معه على أمل أن نفعل ذلك بطريقة منفصلة.